

دور الدين في ظهور الحضارات عند أرنولد توينبي
 Religion's contribution in the emergence of the civilization¹
 according to Arnold Toynbee

مسعود نبيل¹

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار . عنابة
 nabil.meciad@univ-annaba.dz

تاريخ الوصول 2020/01/17 القبول 2021/07/10 النشر على الخط 2021/11/30
 Received 17/01/2020 Accepted 10/07/2021 Published online 30/11/2021

ملخص:

لا شك أن تقدم الأمم وازدهارها يتصدر اهتمام الساسة والمفكرين منذ ظهور الحضارات الأولى، وقد ظهرت نظريات عديدة تحاول تحديد العوامل الأساسية التي تسمح بذلك. فتباينت الآراء حسب الأسس الفكرية التي يستند إليها أصحابها، فالبعض يتكلم عن عوامل جغرافية، والبعض ينسب التقدم لجنس معين، وآخرون يردون ذلك للعناية الإلهية. ومن أهم المفكرين المعاصرين في هذا المجال نذكر المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي أرنولد توينبي، الذي توصل إلى أن أمر تقدم الأمم يعود لأسلوب استجابة الأمم للتحديات الطبيعية والاجتماعية التي تعترضها، لكنه عندما كان بصدد شرح نظريته صدرت عنه آراء قريبة من التفسير الديني للحضارة، لدرجة أن البعض صنفه ضمن القائلين بهذه النظرية، وفي هذه المقالة نحاول التعرف على مصداقية هذا التصنيف، وتحديد مدى مساهمة الدين في ظهور الحضارات عند هذا المفكر.

الكلمات المفتاحية: توينبي، الدين، الحضارة، التاريخ، الفلسفة.

Abstract:

Nation's progress has always been the central concern of politicians and thinkers since the very beginning of civilizations. Many theories attempted to determine the vital factors helping this. Thus views have diverged up on theories. Some attribute this to geographical factors, others to race, while others believe in the Divine providence. Toynbee a contemporary thinker, this philosopher suggests that nations that had an adequate response to natural and social challenges, were able to progress. Some researchers suggest that he gave a religious approach to that. Through this paper we will attempt to check whether he really supports the religious approach for the civilization's emergence.

Keywords: Toynbee, religion, civilization, history, philosophy

البريد الإلكتروني: nabil.meciad@univ-annaba.dz

¹ - المؤلف المرسل: نبيل مسعود

1 . مقدمة:

كان توينبي لا يهتم كثيرا بأراء رجال الدين في فلسفة الحضارة، على أساس أن الدين ما هو إلا نظام من الخرافات، وموقفه في الواقع يُعبر عن توجه كبير في الغرب لازال قائما إلى اليوم، فقد تراجعت أهمية فكرة العناية الإلهية كثيرا هناك. لكنه في أعماله الأخيرة قام بتعديل موقفه من الدين، وفيها ذكر أن ظهور الحضارة مشروطا بوجود هذا العامل، وأن العقائد الدينية هي التي تُسيّر مجرى التاريخ، ومستقبل الإنسانية يكون دائما في حدود الدين وبسبب منه، وأن الانتقال من حال ما قبل الحضارة، إلى حالة الحضارة يتطلب الإيمان، لدرجة أن البعض صنّفه إلى جانب القائلين بالتفسير الديني للتاريخ والحضارة⁽¹⁾، إلا أن هذا التصنيف قد يكون مجانباً للصواب، لأن توينبي بحث في هذا الموضوع من زاوية مغايرة فخلص لوجه نظر مختلفة، سنعمل على توضيحها في هذه المقالة من خلال الإجابة على المشكلة التالية: ما هو دور الدين فيما تعرفه الشعوب من تقدم وازدهار عند هذا المفكر؟ وهل يعتبره عاملاً أساسياً في ظهور الحضارات؟

2 . مفهوم الحضارة عند توينبي

إذا كانت الحضارة تشير لمستوى معين من الرقي الذي حققته بعض المجتمعات، فإن أرنولد توينبي Arnold Joseph Toynbee (1889 . 1975م) ينظر إليها باعتبارها صانعة لمظاهر التقدم، وهنا يصبح من الصعب الفصل بين الحضارة والمجتمع الذي أوجدها⁽²⁾. فهو لا يعني بها مظاهرها المادية والمعنوية، وإنما يقصد المجتمع الذي صنع هذه المظاهر، ولا يعني بالمجتمع الأمة أو الدولة القومية، فهو يستعمله بمعناه الواسع الذي يتجاوز هذه التجمعات ليشمل مجموعة من الأمم تقوم بينها علاقات مشتركة⁽³⁾، وبهذا المعنى تكون الحضارة أو المجتمع عنده هي وحدة الدراسة التاريخية⁽⁴⁾، وليست الدولة القومية كما يعتقد أغلب المؤرخين، وهي فكرة يكون قد اقتبسها من عالم الاجتماع والفيلسوف الروسي نيكولاي دانييلفسكي Nikolay Danilevsky (1822 . 1885 م)⁽⁵⁾.

ومثاله في ذلك بريطانيا، التي كانت لا تغيب عنها الشمس، إلا أنها لم تبلغ بنظره درجة المجتمع، فهي تنتمي إلى المجتمع الغربي أو الحضارة الغربية الذي تضم فرنسا وإسبانيا وهولندا والبلاد الاسكندنافية وغيرها من الدول⁽⁶⁾، ولا يمكن فهم تاريخها بشكل منفصل

(1) . آلبان. ج. ويد جيري: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1996، ج 1)، ص 177.

(2) . الهادي التيمومي (إشراف): نظريات المعرفة التاريخية، وفلسفات التاريخ في العالم الغربي، في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة، الجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، (تونس، بيت الحكمة، ط 1، 2008)، ص 285.

(3) . أرنولد توينبي: الحرب والمدنية، ترجمة أحمد محمود سليمان، (القاهرة، دار النهضة، د ط، 1964)، ص 220.

(4) - Robert Derathé : Les deux conceptions de l'histoire chez Arnold J . Toynbee , (Revue Francaise de science politique , 5^eannee , no 1, 1955) , p 121

(5) . لمعي المطيعي: أرنولد توينبي المؤرخ الفيلسوف، (القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، د ط، د ت)، ص 5.

(6) . أرنولد توينبي: أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد الشبل، ج 1، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، د ط، 2011)، ص 7.

عن هذه الدول، لاعتقاده بأن النظر إلى المجتمع نظرة مصغرة، سيحول دون ملاحظة بعض الأجزاء المهمة في الدراسات التاريخية. لذلك يرى من الضروري أن يوسع الباحث أفقه، ليتمكن من التفكير بشكل صحيح في أسس الحضارة الشاملة⁽¹⁾. ولهذا اعترض على المؤرخين الذين اكتفوا في دراستهم بالفصول الأخيرة من الأحداث، وثمن ما قام به علماء الانثروبولوجيا لأن هؤلاء يحرصون على معرفة البدايات حرصهم على معرفة النهايات. لذلك تراهم يقسمون تاريخ الإنسان إلى قسمين، القسم الأول يخص تطوره البيولوجي، ويستغرق كل الخطوات التي تفصله عن أسلافه من الرئيسيات العليا خلال بضعة ملايين من السنين تكون قد مرت منذ ظهوره. والقسم الثاني يهتم بتاريخه الحضاري الذي يفصله عن قبائل الصيد في إفريقيا، وجامعي الغذاء في استراليا خلال بضعة آلاف من السنين، وهي الفترة التي عرفت ظهور الإنسان العاقل الذي أخذ في التحول إلى مخلوق يتطلع إلى الفن والاختراع والاكتشاف⁽²⁾، فكانت دراستهم شاملة. فنصح المؤرخون أن تكون دراستهم لتاريخ الحضارات على هذا المنوال، وعليهم تجنب اجتزاء التاريخ، لأن ذلك من شأنه أن يشوه أحداثه. وشبه من يخالف هذه المنهجية، بمن يريد إعادة تأليف كتاب بناء على ما ورد في فصله الأخير⁽³⁾، وبالطبع ستفقد منه الكثير من الحقائق.

وقد يكون استند في تصوره هذا للنظرية الجشطالتيية التي يعتقد أصحابها أنه لا يمكن إدراك الشيء إلا في إطار عام وكلي. وأن إدراك الكل عندهم يكون متقدما على العناصر التي يتألف منها⁽⁴⁾. فنقل توينبي هذا التصور إلى مجال الدراسات التاريخية، وهذا ما يمكن استنتاجه من قوله: "لكي نفهم الأجزاء يجب أن نركز اهتمامنا أولا على الكل، هذا الكل هو ميدان الدراسة القابل للفهم"⁽⁵⁾. وفي هذا قال هيرودوت Herodotus (484 . 425 ق م): "ولأمضي في بسط تاريخي، راويا في هذا العرض قصص المدن الصغيرة والكبيرة سواء بسواء، ذلك أن ما كان مُدُنًا زاهرة ذات يوم غدت صغيرة داوية الآن، كما أن المدن الصغيرة قديما باتت حواضر زاهرة في أيامي، ولما كنت أعلم علم اليقين أن سعادة البشر لا تدوم، فإني سأولي الكبير والصغير اهتمامي حريصا على ألا أقصر في ذكر هذا أو ذاك"⁽⁶⁾. وقد ظهر هذا النص في أحد كتب توينبي والذي تضمن نصا آخر للمؤرخ بوليبيوس Polybius (208 ق م . 126 ق م) أكد فيه نفس الفكرة وهذا في قوله: "إذا ظن أي قارئ أن معاينة البلدان الرئيسية كلٌّ بمعزل عن الآخر، من شأنه أن يقدم له صورة سريعة للعالم في تربيته ووضعه العام، فإني أرى من واجبي أن أسارع بفضح مغالطته هذه، لأن الإصرار على القول بأن العلم بالتاريخ المحلي يقدم نظرة متزنة عن الظاهرة بأسرها أمر خاطئ، كخطأ الظن بأن تأمل عضو من أعضاء الجسم يعادل الملاحظة المباشرة للكائن نفسه بكل ما فيه من حياة وطاقة وجمال"⁽⁷⁾. إلا أن توينبي يتميز عن هذين المؤرخين

⁽¹⁾-Arnold Toynbee: civilisation on trial, (new York ,oxford universitypress, 1948) p11.

⁽²⁾. علاء الدين الاعرجي: أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل (لندن منشورات اي كتب، ط 5، 2015)، ص 35.

⁽³⁾. روبرت لوي: تاريخ الانثولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية، ترجمة نظير جاهل، (بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 2007)، ص 9.

⁽⁴⁾. صليبا جميل: المعجم الفلسفي، ج 1، (لبنان، دار الكتاب اللبناني، د ط، 1982)، ص 403.

⁽⁵⁾. ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد الشبل، ج 1، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، د ط، 2011)، ص 10.

⁽⁶⁾. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الاله الملاح، (ابوظبي، شركة ابوظبي للطباعة والنشر، د ط، 2001)، ص 31.

⁽⁷⁾. ارنولد توينبي: الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة لمعي المطيعي، (القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، 1966)، ص 58.

المؤرخين بكون نظريته كانت اشمل بكثير، وفي الحقيقة الفضل في ذلك لا يعود لقدرات خاصة يتمتع بها، وإنما يعود لتراكم المعارف فقط. هذه الرؤية جعلته يرى الدول القومية أصغر من أن يُنظر إليها كحضارة، وتبين له ضرورة دمج المجتمعات التي لها نفس القيم، والعمل على اختزالها في وحدات شاملة، تُعرف بالحضارات أو المجتمعات، وكانت البداية مع بلاده بريطانيا التي تعود أصولها بنظره إلى ما قبل المجتمع الهيليني⁽¹⁾.

فكانت الحضارة عنده مرادفة للمجتمع لكنه يُقر بوجود مجتمعات بدائية، وهذا يعني منطقياً وجود مجتمعات بدائية متحضرة، بالنسبة لتويني لا يوجد تناقض في ذلك، لأن الحضارة عنده لا تشير إلى معنى يقف على طرفي نقيض مع البداوة كما هو شائع، وإنما يشير بها إلى المجتمع في حد ذاته، وما يحتوي عليه من طاقات بشرية ومادية. كما أن المماهة بين المجتمع والحضارة لا يعني أنه يجعل الحضارة مرادفة للمجتمع بشكل مطلق، لاسيما عندما يتعلق الأمر بالمجتمع البدائي. فمن الصعب وضع الحضارة إلى جانب هذا النوع من المجتمعات، خاصة إذا أخذنا البدائية بمعنى الفجاجة والتخلف والخشونة والبساطة في نمط الحياة بشكل عام، أي بالمعنى الذي لا يتعد كثيراً عن اشتقاقها اللغوي الذي يشير إلى لحظة مبكرة في الزمان⁽²⁾.

وذكر توينبي أن هذه المجتمعات البدائية الصغيرة في الغالب تنتهي حين تقهرها جماعة متمدنة، أو حين تُبنيها جماعة بدائية أخرى، لكن هذا لا يمنع أن تتخلص بعضها من طابعها البدائي، وتتحول إلى مجتمعات متحضرة إذا اتبعت شروطاً معينة⁽³⁾. هنا فقط يحل محل عنده مصطلح المجتمع محل الحضارة، ويمكن حينها استعمال المصطلحين بشكل متكافئ، فيقول المجتمع الغربي المعاصر، وهو يقصد الحضارة الغربية المعاصرة. وعليه فإن الحضارة عنده، هي كل متكامل لا يتجزأ تمتاز فيه كل الأجزاء، ويعتمد كل منها على الآخر. ولا تشير عنده إلى العناصر المادية أو المعنوية أو ما يعرف بمظاهر الحضارة، وبالتالي يكون هذا الفهم قد جنبه الجدل المتعلق بمشكلة ما صدق الحضارة، وما صدق الثقافة، وأيهما يعبر عن الجوانب المادية، أو الجوانب المعنوية. هذه المشكلة غير مطروحة عنده، لأن الحضارة هي التي تنتج هذه العناصر بنوعيتها، وهنا تصبح مرادفة للمجتمع، فنظر إلى الحضارة كغلاف أو ظرف، وليس كمحتويات من عادات وعلوم وفنون وغيرها، وهذا ما يفسر استعماله لمصطلح المجتمع للتعبير عن الحضارة والعكس صحيح، وتنقسم عنده إلى أربعة أقسام وهي:

2. 1. الحضارات العقيمة:

وهي الحضارات التي لم تشهد تمام نضجها وماتت في المهد، ومن ذلك الشماليون الذين حاولوا استلهاهم حضارة روما بعد تدميرهم لها لكنهم فشلوا في تحقيق أي تقدم⁽⁴⁾. ويرى أن الحضارات العقيمة تقتل قبل نموها، وعندما يتحدث عن الميلاد والموت هنا، فهو لا يعني به الميلاد والموت التي تعرفه الكائنات الحية، وإنما يربط الميلاد بوجود الدين وهذا ما نعمل على توضيحه لاحقاً، أما موتها فيربطه بفشلها في الاستجابة للتحديات.

(1). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 19.

(2). اشلي مونتاغو: البدائية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د ط، 1982)، ص 21.

(3). كولنجوود روبن جورج: فكرة التاريخ، ت، محمد بكير خليل، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، دط، 1961)، ص 288.

(4). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 262.

2. 2. الحضارات المتعطلة:

وهي الحضارات التي نتجت كاستجابة لتحديات طبيعية، لكنها أخفقت في متابعة نموها، ومن نماذجها ذكر الحضارة البولينية، وحضارة الاسكيمو والبدو، والحضارة الاسبرطية في العالم الهيليني، والحضارة العثمانية في شرق أوروبا، ولا ندري ما هو مبرره لتصنيف الدولة العثمانية التي قادت العالم الإسلامي لقرون، وهددت أوروبا مرارا، إلى جانب المجتمعات البدائية.

2. 3. الحضارات المتحجرة:

المقصود بالتحجر عنده ليس ما نجده في عالم النبات والحيوان عندما يتحول الكائن الحي إلى أحفور، وإنما التحجر المقصود يكون على مستوى الصفات النفسية، التي يحتفظ بها المجتمع، فاليهود حسب توينبي يُظهرون بكل جلاء في الوقت الحاضر الصفات الراسخة في أذهان الأمم عنهم، والتي ظلت ثابتة فيهم رغم مرور الكثير من القرون. ويرى توينبي أن اليهودي الذي يسعى إلى تغيير نفسه إلى هولندي أو إنجليزي أو أمريكي، سيشوّه في أعين الصهاينة الشخصية اليهودية، ثم أنه لن يفلح في اكتساب شخصية الهولندي الكاملة أو أي جنسية أخرى⁽¹⁾. وعندما بحث توينبي في تحجر اليهود وجد أن السبب يعود إلى عقيدتهم التي جعلتهم يؤمنون بأسطورة كونهم شعب الله المختار كحقيقة مطلقة، فانحرفت بهم إلى العقم الفكري⁽²⁾.

2. 4. الحضارات المشعة

أما الحضارات المشعة أو النامية فيشير بها إلى الحضارات العظيمة التي حفظ التاريخ ذكرها، وقد أخذت الكثير من جهده خلال حياته، باحثا ومتتبعاً أثارها في الميدان وفي الكتب، وقد اختلف المؤرخون في عددها بسبب إمكانية دمج حضارة أو حضارتين في أخرى، ومن هذه الحضارات، الحضارة المصرية، والصينية، والأشورية، البابلية، والفينيقية، والكلدانية، والهندية، والحضارة الفارسية، والحضارة اليونانية، والحضارة الرومانية، والحضارة العربية، وحضارة المايا والإنكا في بيرو والمكسيك، والحضارة الغربية المعاصرة⁽³⁾.

3. مفهوم الدين عند توينبي

الدين هو نسق من المشاعر والاعتقادات والأفعال موضوعها الله⁽⁴⁾، ويظهر في صورة عبادات وطقوس ومعاملات، وينعكس على الحياة الاجتماعية والثقافية، وقد يكون مصدرا للتشريع. ويتمتع بصفات تجعله يختلف عن الشريعة، والفلسفة والعادات والتقاليد. وهو موقف من الحياة يُمكن الناس من التغلب على الصعاب، ويمنحهم أحوبة تبعث على الرضا الروحي، تتعلق بسر الكون ودور الإنسان فيه، ويمدهم بقواعد سلوك عملية. هذه التعريف كما هو ظاهر كان مركزا على الغاية من وجود الدين، ولم يهتم كثيرا بالبحث في طبيعته ومصدره، وعلى هذا الأساس كان توينبي يتعامل معه⁽⁵⁾.

(1). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، 226.

(2). المصدر نفسه، ج 1، ص 59.

(3). ديوبس: مستقبل الحضارة، ترجمة لمعي المطيعي، (القاهرة، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، د ط، 1961)، ص 29.

(4). اندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل احمد خليل، (بيروت، باريس، منشورات عويدات، ط 2، 2001)، ص 1203.

(5). أمين شليبي: نظرات في توينبي، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2000، ص 58.

والدين بنظره لا يمكن تصور غيابه عن المجتمعات، وأن المجتمع الذي تتراجع ديانته يعمل على استبدالها عاجلاً أم آجلاً بديانة أخرى، ومن ذلك أن الفراغ الذي نتج عن تراجع المسيحية في القرن السابع عشر في أوروبا، قد امتلأ بظهور ثلاثة أديان أخرى لا تقل سلطة وهيمنة. هي الشيوعية والقومية والعلم، وكل منها تتوفر على خصائص الدين وطقوسه⁽¹⁾. وهذا يؤكد استمرار الدين في حياة الناس لكنه قابل للتغير، فالمعتقدات تشبه الطاقة في الفيزياء، والمعلوم أن الطاقة تتحول، ولكن من غير أن تزول تماماً، والمعتقدات كذلك لا تموت وإنما تغير اسمها فقط، والأمر نفسه عند توينبي الذي لا يتحدث عن زوال الدين، بل الحضارة عنده هي التي تزول، وتحل محلها حضارة أخرى، أما الدين سيبقى مستمرا في صور مختلفة.

وهذا ما ذهب إليه ول ديورانت Will Durant (1885 . 1981 م) الذي يرى أن الدين سيظل موجودا، ويتمتع بمكانة خاصة لدى الشعوب، وفي الحالات التي يسود الاعتقاد بأنه اختفى تاركا المجال للعقل أو ايدولوجية معينة، فإنه في الحقيقة لا زال هناك محتفيا في مذهب ما أو توجه معين. لقد ظن اليونانيون أن البانثيون Pantheon أفرغ من آلهته، لكنه في الواقع امتلأ بآلهة أخرى قادمة من الشرق محملة بأساطيرها وتعاليمها⁽²⁾، في إشارة للديانة المسيحية. وكان توينبي يسعى للتقريب بين الأديان، ولا يمانع في امتزاجها في صورة دين واحد، ويرى أن اتحاد البشر في المستقبل، مرهون بقيام نوع من الدين المشترك يتكون من الأديان الأكثر انتشارا في العالم، فكان بذلك أقرب ما يكون إلى القائلين بوحدة الأديان.

ويرى أن التعاون بين الأديان الأربعة الكبرى تفرضه الاخطار الناجمة عن الانفلات التكنولوجي، الذي بات يهدد الكوكب، وآمل أن يأخذ البوذيون والهندوس والشتو زمام المبادرة⁽³⁾، لأن عقائدهم بنظره أكثر انسجاما مع الطبيعة، وتدعوا للسيطرة على النفس، ويرى أن كل دين في المستقبل يبشر بهذه القاعدة، سيظفر بولاء البشرية، وهذا يعني أن توينبي لا ينتمي بشكل تقليدي إلى أي دين من الديانات العالمية، إلا أنه يشاركها قيمها الروحية⁽⁴⁾. ولم يستسيغ الحروب التي كان يقف وراءها الدين، وكان يندد بالتعصب للأديان فقال: إن قيام دين يقال عنه أنه دين حق، باضطهاد دين على أساس أنه باطلا، أمر يناقض في صميمه طبيعة العقيدة الدينية، لأن الدين عندما يلجأ إلى سلاح الاضطهاد، فإنه يضع نفسه في مكان الباطل، ويتخلى عن مقوماته⁽⁵⁾. وفي هذا الإطار نجده يعترض على تاريخ المسيحية الذي تميز باضطهاد الأديان الأخرى، ويبرر ردود الأفعال الصادرة عن فلاسفة الأنوار ضد المسيحية والتي تدعوا في مجملها لفصل الدين عن الدولة.

ثم انتبه إلى مسألة مهمة وهي التغير الذي يطرأ على الدين عندما يغادر المكان الذي ظهر فيه أول مرة، فوجد أن المسيحية عندما انتقلت من فلسطين إلى روما، تعرضت لبعض التغير، بل ظهرت دراسات أكدت أن المسيحية بُعثت من جديد على يد بولس، بالنظر إلى التغير الذي طال مبادئها. وفي هذا الصدد قدم مثالا ذكر فيه أن الإسلام عندما انتقل من بلاد العرب إلى فارس، فإنه

(1). ارنولد توينبي، دايساكو أكيدا: التحديات الكبرى، الحياة والدين والدولة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، (دمشق وزارة الثقافة، ط 1، 1999)، ص 373.

(2). ول ديورانت: دروس التاريخ، ترجمة علي شلش، (القاهرة، دار الجيل، د ط، 1999)، ص 101.

(3). المصدر السابق، ص 50 .

(4). أمين شليبي: نظرات في توينبي، ص 62 .

(5). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 2، ص 42.

تعرض لبعض التغيير حتى يتفق مع ثقافة المؤمنين الجدد، وهذا ما دفع أمين معلوف الى القول: إني على قناعة عميقة بأننا نبالغ في تقدير وزن الديانات في الشعوب، ولا نقدر تأثير الشعوب في الديانات حق قدره⁽¹⁾.

وعن الكيفية التي ينتشر بها الدين، فإن توينبي يعارض الفكرة القائلة بأن الشعوب على ديانة ملوكها، ولا يتفق مع القول بأن الأمير أو الملك هو الذي يحدد الدين لشعبه، أنها نظرية باطلة عنده، والصحيح أن الشعوب هي التي تفرض ديانتها على حكامهم، بدليل أن الإمبراطور الروماني قسطنطين عندما تمسح كان في الحقيقة يُعبر عن إرادة الشعب، ولو حاول أحد الملوك إرغام شعبه على اعتناق دينا جديدا، فإن هذه العقيدة المفروضة ستراجع بمجرد اختفاء القوة التي تسندها.

ويرى أن قوة الدين الخلاقة لن تبرز للعيان إلا عندما يصبح دينا عالميا، ولفظ العالمية هنا يشير إلى اتساع الرقعة الجغرافية التي ينتشر فيها، وأن يكون له أتباع في أماكن مختلفة ومتباعدة في العالم. ويحدث هذا الانتشار في المقام الأول عن طريق الفتوحات بمختلف أنواعها، التي تحققها الإمبراطورية أو الدولة العالمية التي تدين به. ونلاحظ هنا أن انتشار الدين خارجيا قد يتطلب القوة، أما داخليا فإن القوة تضر به كما تقدم، مع الإشارة أن توينبي لم يدعم هذه الفكرة بأدلة مقنعة. ثم أن الدين إذا كان لا ينتشر إلا في ظل إمبراطورية تقدم له الحماية اللازمة، فكيف يضعه توينبي في مقدمة عوامل ظهور الحضارة، إن هذا الكلام يشي بوقوعه في تناقض، أو على الأقل في خطأ منطقي وهو ما يعبر عنه بالدور، عندما أكد أن الدين أساس الحضارة، وفي نفس الوقت يرى أن الدين يزداد انتشارا في ظل قوة حضارية تتكفل بحمايته⁽²⁾.

وقد حاول دفع هذا الالتباس بقوله أن الأديان الكبرى لم تظهر على مسرح التاريخ، إلا في زمن حديث نسبيا، لكن هذا يعمق الغموض أكثر، لأن التاريخ يخبرنا بوجود حضارات قديمة، وبما أن الدين العالمي حديث العهد، فهذا يعني أنه لم يساهم في ظهور تلك الحضارات. لكن هذا الغموض يمكن رفعه، لأن توينبي يرى أن الحضارات في بدايتها تظهر استجابة لتحديات طبيعية، ثم تشهد ظهور الديانات التي تكون في بدايتها محلية ثم تصبح عالمية، وإذا بلغت الأديان هذا المستوى من التقدم عندها تساهم في ظهور حضارة أخرى. وهذا يعني أن وظيفة الدين تكمن في الربط بين حضارة آفلة وحضارة قادمة، مشبها أياه باليعة أو الشرقة التي تمثل حلقة وصل بين الدودة والفرشة، وسنعود الى هذه الفكرة في نهاية هذه المقالة.

وتأخذ عناصر الحضارة عنده طابع الدين المنتشر فيها، فيظهر في نظمها السياسية والاقتصادية، على مستوى الفنون والعمارة والعلوم. وقد أشار إلى هذا المعنى محمد عابد الجابري عندما تناول ظهور علم الجبر والمقابلة في العالم الإسلامي فقال: "إننا نكاد نجزم بأن الجبر العربي يدين في وجوده للفقهاء والفقهاء"⁽³⁾. ونفس الشيء يقال بالنسبة لعلم الفلك في هذه الحضارة، لأن الفكرة الدينية هنا تكون قد أخذت بمجامع المسلمين. لذلك إذا أردنا أن نبحث في الحضارة علينا كما يقول قسطنطين زريق: "سبر غور الدين السائد فيها، وإدراك روحه، وعقائده ونظمه"⁽⁴⁾، لأن الدين ينعكس على حياة المتدين، وفي نفس الإطار نجد توينبي يقول إن

(1). أمين معلوف: اختلال العالم، حضاراتنا المتهافنة، ترجمة ميشال كرم، (بيروت، دار الفارابي، ط 1، 2009)، ص 232.

(2). الشيخ رأفت: فلسفة التاريخ، (القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1988)، ص 199.

(3). محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، دار الطليعة، ط 10، 2009)، ص 99.

(4). قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، (بيروت، دار العلم للملايين، ط 4، 1971)، ص 95.

أسلوب الحضارة هو التعبير عن ديانتها، وهذا بعد العرض الذي قام به في كتابه تاريخ البشرية لأبرز الانجازات التي حققها البشر في أماكن مختلفة، ليصل الى أن الاختلاف بين الحضارات هو في الأساس اختلاف في الديانات⁽¹⁾.

وقام بالرد على الآراء التي تتهم الدين بكونه العامل الأساسي في سقوط الحضارة كما فعل جيبون الذي يرى أن سقوط الحضارة الرومانية يعود بالدرجة الأولى لانتشار العقيدة المسيحية. فرد عليه بالقول أن سقوط روما لم يكن بسبب انتشار المسيحية، فهذه الإمبراطورية شرعت في السقوط منذ زمن طويل سابق عن وصول هذه الديانة إلى مركزها⁽²⁾، نتيجة للخلافات الداخلية. وحاول التصدي للأفكار المناوئة للدين التي ظهرت عند جيمس فريزر J. G. Frazer (1854 . 1941م) في كتابه الغصن الذهبي حيث ذكر أن المسيحية مزقت أوصال الحضارة الكلاسيكية، قائلاً أن فريزر ومن هم على شاكلته في الغرب المعاصر، قد بالغوا في ميلهم نحو العقل مبالغة جعلت منهم جيلاً آخر من الوثنيين المحدثين، وقد بدأ هذا الجيل في الظهور منذ القرن الخامس عشر للميلاد في إيطاليا⁽³⁾، ملمحاً لتقديس العقل في عصر النهضة وعصر الأنوار، ومن ثم اعتبر كلام فريزر غير صحيح، وأنه يقوم على فهم مبتسر لطبيعة الأديان وللنفوس البشرية على السواء. ودفاعه عن الدين نابع من قناعته بأنه لا يوجد أي تناقض بين اللجوء إلى الله بحثاً عن خلاص النفس، والسعي نحو القيام بشؤون الحياة على أفضل وجه. وجاءت هذه القناعة في زمن تراجعت فيه بعض نظريات فلسفة التاريخ، وأهمها الفهم المادي لأحداثه، وبدأ يحل محلها العودة التدريجية للمفاهيم الدينية والروحانية، وقد يعود ذلك لانتشار فكرة النسبية الثقافية التي جاءت لتهدأ أركان الحداثة الغربية⁽⁴⁾.

ويؤكد أن الدين ليس سرطاناً يلتهم النسيج الحي للمجتمع، وإنما هو واسطة تضمن استمرار الحضارة الإنسانية. وذهب إلى القول أن الارتقاء الروحاني للنفوس البشرية، سيجعل معه تقدماً اجتماعياً أعظم بكثير مما يتحقق بتحقيقه باستخدام طرق أخرى. ويعتقد أن الحضارة لا تزول دون أن تورث شيئاً من مكاسبها التقنية والروحية للأجيال القادمة، وهذه الرؤية تعود لقناعته بأن التاريخ في طريقه نحو التطور بدافع روحي في الأساس. وهنا قال: لا يسعني إلا الاعتراف بعد سنوات طويلة من الدراسة بدور الدين في ظهور الحضارات، وأنها تدفع الحضارة إلى الأمام وليست سرطاناً، وأن الحضارات والمجتمعات الحالية، يكمن وراءها نوع من العقيدة الدينية العالمية⁽⁵⁾. ويرى أن فقدان الديانات العليا ولواء البشر، يعد علامة على تراجع ذلك المجتمع، لأن الدين يمثل إحدى الملكات الضرورية للطبيعة البشرية، وافتقار الإنسان للدين يدفع إلى حالة من اليأس الروحي تضطره إلى التماس العزاء لدى إيديولوجيات وأفكار أخرى. وبالنظر لهذه الآراء صنفه البعض إلى جانب أنصار المذهب الإنساني بالمعنى الصحيح، وأنه استطاع أن يضفي على

(1). ارنولد توينبي : التحديات الكبرى ، ص 379 .

(2). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 3، ص 146 .

(3). المصدر السابق، ج 3، ص 146

(4). المبروك المنصوري: مكانة الدين في النهضة اليابانية و العربية، (تونس، الدار المتوسطية للنشر، ط 1، 2012)، ص 77.

(5). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 3، ص 152.

المغامرة الإنسانية معنى، وابتعد بها قدر الإمكان عن فكرة الحتمية التي سلبت من الإنسان إي قدرة على التأثير في توجيه أحداث التاريخ⁽¹⁾. ثم شرع في تتبع دور الدين فيما عرفه الإنسان من تقدم فوجد أن هذا الدور يتعاضد كلما ابتعدنا عن المراحل البدائية.

4. من البدائية الى الحضارة

ينقل توينبي عن علماء الانثروبولوجيا أن الإنسان عرف منذ ظهوره قبل أكثر من مليون سنة أشكالاً من التهذيب سواء على مستوى الجسم أو على مستوى وعيه وأفكاره، ليظهر الإنسان العاقل في الأخير بعد اختفاء أسلافه السابقين، وقد تفوق عليهم في استخدام ملكاته لينجح في اكتشاف النار، وبرع في استعمال الأدوات التي يعثر عليها، ولاحقاً قام بصنعها، كما كانت له قدرة على اكتساب اللغة، وأصبح له تصور متقدم عن النظام الاجتماعي⁽²⁾. وبدأ يراعي في أفعاله بعض القوانين الأخلاقية التي كان يفتقد إليها في السابق⁽³⁾. لكن هذه المكتسبات لم تكن كافية لإخراجه من وضعه الطبيعي، ولم تمكنه من مغادرة الحالة البدائية إلا بعد مرور آلاف السنين. ويشير معنى البدائية إلى كل ما يتعلق بالبداية أو الأصل أو الأقدم في الزمن⁽⁴⁾. وتحيل بشكل عام إلى الفجاجة والخشونة والتخلف. أما البدائي فهو الذي يحوز تلك الصفات سواء قبل التاريخ أو في الفترات اللاحقة بما فيها العصر الحالي⁽⁵⁾. والأمم البدائية هي التي تتكون من البدائيين في كل مكان، والذين يشكلون مجتمعات متجانسة في الغالب، على الرغم من بعد المسافات بينها.

ويتألف المجتمع البدائي من مجموعة من الأفراد الذين يعيشون على الصيد واستئناس بعض الحيوانات. ويرى العلماء أن نزوع الإنسان للحياة في شكل جماعات يعود لأسباب غريزية. لكن رالف لينتون (Ralph Linton 1893 . 1953م) يشك في صحة هذه النظرية، ويرى أن الميل إلى العيش في جماعات هو امتداد للبحث عن الرعاية والحماية التي يمر بها الإنسان في مرحلة الطفولة⁽⁶⁾. ويميل كثير من العلماء إلى الأخذ بالرأي القائل أن التجمعات البشرية البدائية، أخذت في الانتشار في جميع القارات نتيجة للتغيرات المناخية التي طرأت على الكرة الأرضية، وبسبب تراجع مصادر الغذاء وما رافقها من نزاعات محلية⁽⁷⁾. لكن هذا الانتشار لم يدفعها إلى تغيير نمط حياتها، حيث ظل زمنها دائري وأحداثه متكررة لا جديد فيها، واستمر الوضع على هذه الصورة حسب بعض الدراسات إلى أن حلت الألف الخامسة قبل الميلاد.

(1). بيير هنري سيمون: الفكر والتاريخ، الفكر والتاريخ، ترجمة عادل العوا، (دمشق، المطبعة الهاشمية، دط، 1963)، ص 64.

(2). ادغار موران: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، (أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط 1، 2009)، ص 42.

(3). جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، 2012)، ص 50.

(4). اشلي مونتاغو: البدائية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د ط، 1982)، ص 85.

(5). روبرت لوي: تاريخ الانثولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية، ترجمة نظير جاهل، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 2007)، ص 9.

(6). رالف لينتون: شجرة الحضارة، قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ، حتى بداية العصر الحديث، ترجمة احمد فخري، ج 1، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، د ط، 2010)، ص 66.

(7). ادغار موران: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ص 39.

هذا التعريف حسب بعض الباحثين كان ينظر إلى البدائية نظرة سلبية، لأنه صادر عن رؤية انتروبولوجية لماضي الإنسان من أعالي الحضارة الغربية المعاصرة، ثم إن أصحاب هذا التعريف يسحبونه على بعض المجتمعات المعاصرة التي لم تدرك بعد الحضارة. مع أنه ليس من الموضوعية أن نحكم على هذه الجماعات القديمة بالنظر لما بلغته الإنسانية من تطور، ولا يجب أن نحمل الجهود التي بذلها الإنسان في مراحل المبكرة. إنه تحامل وتحيي لا مبرر له إطلاقاً من وجهة النظر العلمية، لأن أصحاب هذه الأحكام لو يمتد بهم العمر لقرن أو قرنين، سيتحولون إلى بدائيين في نظر أبناء المستقبل. لذلك لا يجب اخذ البدائية كمترادف للتخلف والبساطة، وكان من الأولى وصفها بالمجتمعات اللاكتائية⁽¹⁾، مادامت لم توفق للكيفية التي تحفظ بها ثقافتها بشكل أفضل. ثم من قال أن الصفات البدائية اختفت من سلوك الإنسان المعاصر؟ إنه بنظر ول ديورانت لا زال محافظاً على سلوكه القديم، فنراه يفترس أخيه الإنسان بطرق جديدة⁽²⁾.

وبالنسبة لتويني فإن دراسته للتاريخ، كشفت له أن المجتمعات البدائية أكثر عدداً من المجتمعات المتحضرة، ولكن هذا لا يعني أنها أكثر عدداً من حيث النمو الديموغرافي، لأنه في واقع الحال العدد الإجمالي لكل المجتمعات البدائية، لم يبلغ عدد أفراد أي مجتمع من المجتمعات المتحضرة الحالية، وهذا ما ذكره في قوله: " لو استطعنا إجراء تعداد لأفراد الحضارات الخمس التي لا تزال حية إلى وقتنا هذا خلال العدد القليل من القرون التي عاشتها حتى الآن، لكان من المحتمل أن نجد كل مجتمع من مجتمعاتنا الهائلة، يضم وحده عدداً من البشر أعظم مما ضمته المجتمعات البدائية كلها منذ انبعاث الجنس البشري"⁽³⁾. وذكر أن العلماء تمكنوا من إحصاء 650 650 مجتمعا بدائيا بما فيها البدائيون المعاصرون، أما الفترة التي شهدت أول ظهور لهذا المجتمعات فيرجح أنها كانت في حدود 300000 سنة خلت⁽⁴⁾، وهو زمن يعود بنا إلى نهاية العصر الحجري القديم، وفيه تمكن الإنسان العاقل من تشذيب الحجارة والخشب لاستخدامها في تحصيل الطعام⁽⁵⁾.

وإذا كانت بعض الدراسات الانثروبولوجية لا تقيم وزناً لمجهود البدائيين، فإن تويني يرى أن هذه المجتمعات على بدائيتها، كانت تسجل تقدماً بداية من العصر الحجري إلى حدود سنة 4000 قبل الميلاد، ولو أنه كان تقدماً بطيئاً. ويرى أن الفترة التي استغرقها الإنسان لولوج الحضارة فترة قليلة جداً حتى لو تجاوزت مليون سنة، هذا بمقارنتها مع الفترات السابقة التي عرفت الكائنات الحية في عصورها السحيقة المقدرة بمئات الملايين من السنين، وفي إطار الإشادة بهذه المجتمعات، ذكر أنها كانت على معرفة بالدورة الزراعية

(1). اشلي مونتاغو: البدائية، ص 87.

(2). ول ديورانت: دروس التاريخ، ص 46.

(3). ارنولد تويني: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 59.

(4). المصدر نفسه، ج 1، ص 58.

(5). عبد اللطيف احمد علي: محاضرات في تاريخ الشرق الادنى القديم، (بيروت، كتب كريدية اخوان، د ط، 1971)، ص 38.

وإعادة إنتاج البذور، وكان لها نظامها الاجتماعي الذي لا يخلو من محظورات وطابوهات⁽¹⁾. ثم أخذ اقتصاد العصر الحجري الحديث يشهد تخصصا في العمل، وتنوعا في المهارات مع مرور الأجيال⁽²⁾.

وذهب توينبي بعيدا في تقييم الجهود التي قدمتها المجتمعات البدائية، وذلك بالنظر إلى إمكانياتها المتواضعة وظروفها الصعبة ليصل إلى القول بأن حركة الدفع التي قامت بها المجتمعات البدائية في اتجاه الحضارة الإنسانية، تفوق كل حركة قام بها أي مجتمع متحضر، واهتمامه بمجهود هؤلاء جعله يجد صعوبة في تعيين الحد الفاصل بين البدائيين والمتحضرين⁽³⁾. ويرى أن المجتمع البدائي يميل إلى تقليد ومحاكاة أسلافه عن قناعة بأنهم الأفضل، وبالطبع فإن مجتمعا يتوجه التقليد فيه إلى الوراء نحو الماضي، ستسود فيه حالة من الركود والتخلف، وسيظل ثابتا لا يتطور، مادامت طريقة حياته تدور حول العادات والأعراف المقدسة المتوارثة من الماضي. هذا بالإضافة إلى أن المجتمعات البدائية مجالها ضيق، في حين الحضارة تشمل مناطق واسعة، وإذا كانت الأولى لا تستمر إلا لفترات قصيرة، فإن الحضارة تعمر أكثر. وكانت الحضارات أو المجتمعات المتحضرة عند توينبي بدائية منتشرة في الجزء المسكون من الأرض، ثم تمكنت من مغادرة تخلفها. ويعود ظهورها لدى البعض إلى عشرة آلاف سنة في أوراسيا وأمريكا الجنوبية نتيجة للغزو والصراع بين المجتمعات حول مصادر الغذاء⁽⁴⁾. وهذا ما ذهب إليه توينبي، إلا أنه انتبه أن الحضارة قد تكون أصلية، وقد تكون منتسبة فماذا يعني بهما، وهل تختلف أحدهما عن الأخرى في عملية الميلاد وما علاقة ذلك بالدين؟

5. الدين وميلاد الحضارة:

تبعاً للدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية فإن المجتمعات الإنسانية كانت بدائية، ثم تخلص بعضها من هذه الوضعية ليحقق أولى الحضارات الأصلية.

5. 1. ميلاد الحضارات الأصلية:

الحضارات الأصلية عند توينبي هي تلك الحضارات التي صدرت مباشرة عن المجتمع البدائي، ولم تكن مسبقة بمجتمعات أكثر تقدماً منها، وظهرت نتيجة لوجود تحديات طبيعية مادية تختلف من منطقة لأخرى باختلاف التضاريس. واللافت أن توينبي، كان قد افرد صفحات كثيرة للرد على أنصار البيئة الطبيعية، وحاول إثبات أن العوامل الجغرافية لا يمكن أن تساهم في ظهور الحضارة بشكل منفرد. وكان يميل إلى اعتبار مسألة ظهور الحضارة مسألة نفسية في الأساس، وأنها ردود فعل يقوم بها الإنسان تجاه التحديات المختلفة التي تهدد استمراره⁽⁵⁾، لكنه لم يجد حلاً لظهور الحضارات الأولى في مصر وبلاد الرافدين وبحر إيجة، إلا بافتراض وجود مجتمعات بدائية اصطدمت بتحديات طبيعية، فكانت استجابتها ناجحة، فظهرت الحضارات هناك. وتعد الحضارة

(1) - Pieter geyl ,toynbee's system of civilisation . toynbee and history ,criticalessays and reviews edited by M . f .ashleymontague , (boston, porter sargentpublisher, 1956), p 40.

(2) . هاوس و ل . وولي: اضاء على العصر الحجري، ترجمة، يسري عبد الرازق الجوهري، (القاهرة، دار المعارف، د ط، د ت)، ص 97.

(3) . ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 85.

(4) . ادغار موران: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ص، 209.

(5) . عبد الرحمن حسين العزوي: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، (عمان، دار الخليج، ط 1، 2011)، ص 51.

السومرية، والحضارة المصرية أقدمها ويؤكد أنها تطورت عن مجتمعات ما قبل الحضارة، ولم تنقل عن أي مجتمع كان قائما قبلها، ولم تكن نتيجة إيجاء من أي مجتمع معاصر أو سابق عنها⁽¹⁾.

وقد استند في حكمه هذا إلى النتائج التي وصل إليها عالم الآثار الأسترالي ف. غ. تشايلد Vere Gordon Childe (1892-1957م) وهو الذي ذكر أن الجفاف التدريجي الذي أصاب شمال إفريقيا والهضبة الافراسية عقب نهاية عصر الجليد، جعل المجتمعات هناك تكابد تغيرا في أحوالها الطبيعية بتحدياتها الخطيرة. وقبل ذلك كانت هذه المنطقة تتمتع بمناخ مناسب في شمال إفريقيا، وبلاد العرب وبلاد فارس وواد السند، وهي ظروف مواتية للحضارة، لكنها لم تظهر في تلك المناطق إلا عندما أخذت هذه الظروف في التغير نحو الأسوأ⁽²⁾. فظهرت الحضارة المصرية، وحضارة بلاد الرافدين. وكانت استجابة المجتمعات إزاء تغير الظروف الطبيعية متباينة، فمنها من عزفت عن تغيير موطنها، وتبديل طريقة معيشتها، فكان مصيرها الانقراض. وبعضها حافظت على موطنها، مع تغيير أسلوبها في الحياة، فتحوّلت من الصيد إلى الرعي، وهم بدو السهب الافراسي. وبعض المجتمعات فضلت التمسك بنمط الحياة القديم، إلا أنها غادرت موطنها الأصلي تجنباً للجفاف وكانت وجهتهم الشمال، لكن مناطقهم الجديدة لم تكن أقل قسوة، فاصطدموا هناك بتحدي البرد القارس، وفي خضم التغلب على الأوضاع الجديدة، تمكنوا من اكتساب مهارات ساهمت في الحفاظ على استمرارهم، وبعضهم فضلوا التوجه جنوباً، حيث الطبيعة سهلة وتتوفر على شروط استمرار الحياة، لكن هذا الكرم الذي قابلتهم به الطبيعة، تسبب في حرمانهم من اكتساب مهارات جديدة، بل دفعتهم للكسل والخمول، وبالطبع من هذه حاله لا تنتظر منه مساهمة في الابداع الحضاري، ومن هؤلاء ذكر الدنكا والشيلوك وهم قبائل تتواجد إلى اليوم في جنوب السودان، ونفهم من هذا أن تويني يعترض على هذا الاختيار المريح، ومنحّ جلّ اهتمامه للفيئة الأخيرة التي تميز رد فعلها على الجفاف الطارئ، بتغيير موطنها وأسلوب حياتها معاً، ويرى أن هذه الجماعات، هي التي أسست للحضارة، حيث خاض هؤلاء الرواد الأبطال المستنقعات، محولين إياها إلى أراضي زراعية في مصب دجلة والفرات ودلتا النيل، في مغامرتهم الكبرى نحو التمدن⁽³⁾. والقول بأن الحضارات الأولى أصيلة فيه الكثير من اللبس، لأنه لا يعقل أن نتصور مجتمعا ظل بدائيا طيلة قرون، ثم تتغير ظروفه الطبيعية، فيتعامل معها لينتج حضارة. الأكيد أن أغلب هذه التغيرات لا تحدث بين ليلة وضحاها، فبعضها يتطلب عقوداً من الزمن حتى يشعر بها من يقع عليهم أثرها. ثم عندما يشرع المجتمع في تجاوز هذه التحديات، لا يعقل أن يقوم بذلك دفعة واحدة في شكل حملة يشارك فيها المجتمع في زمن قصير، وإنما التجاوز في حاجة إلى زمن كاف، وقد يشارك فيه أكثر من جيل لتظهر الحضارة لدأسلافه في النهاية. ولما كان تجاوز التحدي الطبيعي يتطلب أجيالاً، فإنه من الصعوبة بمكان وضع حد بين مساهمة المجتمع البدائي ومساهمة المجتمع المتحضر، فكلاهما له مساهمة في التقدم، ومن الاجحاف نسبة ذلك للمتحضرين فقط.

وإذا كان تويني يرى أن ظهور الحضارات الأصلية كان في الأساس رداً على الصعوبات الطبيعية، إلا أنه لم ينف احتمال وجود عقبات مصدرها البشر تكون سببا في ظهور هذا النوع من الحضارات، وهذا في قوله: إن الدليل التاريخي الذي يؤكد وجود تحديات

(1). ارنولد تويني: تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، ج 1، (بيروت، الاهلية للنشر والتوزيع، د ط، 2004)، ص 77.

(2). ارنولد تويني: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 115.

(3). ارنولد تويني: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 117.

بشرية واجهت طلائع الحضارة في بلاد الرافدين ومصر غير متوافر في حال من الأحوال، ولكن من المحتمل جدا أن حضارتنا الأصلية قد جابهت إبان ذلك الماضي السابق للتاريخ الذي يكتنف بدايتها، تحديات بشرية جديدة بالمقارنة من حيث النوع، بالتحديات التي عرضت للمجتمعات المنتسبة⁽¹⁾. ويرى أن أغلب الحضارات كان لها خلف، ما عدا الحضارة المصرية التي لم يكن لها وريث، خلافا لما ذهب إليه بعض المؤرخين من القول بأن الحضارة الغربية المعاصرة تعود بجذورها إلى الحضارة المصرية⁽²⁾.

5. 2. ميلاد الحضارات المنتسبة

إذا كان التحدي الطبيعي هو الذي أنتج الحضارات الأصلية عند توينبي، فإنه يرى أن التحديات البشرية هي السبب في ظهور الحضارات المنتسبة⁽³⁾، والحضارة المنتسبة عنده هي التي تنحدر من حضارة سابقة أصلية تقوم بينهما علاقة الأبوة والبنوة، ومثال ذلك أن الحضارة الغربية هي سليل الحضارة الهيكلية، لكن كيف تتم عملية الولادة هذه؟ يرى توينبي أن ميلاد الحضارة المنتسبة يمر بمراحل هي أقرب ما تكون للمراحل التي تمر بها عملية ميلاد الحيوانات، لا سيما ما يحدث في عالم الفراشات، فلماذا اختار هذا النوع من الحشرات دون غيرها من الكائنات الحية؟

يعلم توينبي أن الفراشات قبل أن تتحول إلى فراشة طائرة، فإنها تكون حشرة خاملة معلقة على أحد الأغصان، وتعرف هذه المرحلة التي تمر بها، بمرحلة اليفعة أو الشرنقة أو الخادرة أو العذراء، التي تحمل داخلها الفراشة. والحمل هنا يختلف عما هو معروف في عالم الثدييات، لأنه في هذه الحالة سنكون بعد عملية الوضع أمام كائنين فيهما الحياة، وهما الأم ووليدها، لكن في حالة الشرنقة سنكون مع كائن واحد، بمعنى أن الحشرة نفسها تتحول إلى شكل آخر، وهذا ما يحدث مع الحضارة، لأن الحضارة قبل ظهورها بهذا الشكل الرائع، كانت داخل شرنقة فما هي شرنقة الحضارة عند توينبي؟

يعتقد توينبي أن الشرنقة التي تتحول إلى حضارة هي العقيدة الدينية، فكما أن الشرنقة تمثل مرحلة ضرورية لتحول الحشرة من حالة السكون إلى حالة الطيران، كذلك الدين. إنه يقوم بحفظ واحتضان بذور الحضارة التي تركتها الحضارة الآفلة، ثم يعمل على زرعها في حضارة قادمة. وعن هذه الوضعية الحرجة التي تمر بها الحضارة قال: تبدأ مرحلة التولد عند ما تغتنم العقيدة الدينية الفرصة التي تهيئها لها البيئة الدنيوية، ومن خصائص تلك البيئة تعطل الكثير من النظم، وطرائق الحياة التي أمدت المجتمع بالحيوية من قبل، وهنا تهتبل العقيدة الدينية فرصتها مانحةً للمجتمع الراكد الذي يحملها الخدمة التي يفتقر إليها، فتتمد بحضارة جديدة. وهنا يكون الدين عند توينبي حسباً أحمد محمود صبحي بمثابة العذارى الكامنة في شرانقتها، إذ هي التي تنقل مقومات الحياة والإبداع إلى حضارات جديدة، فيقوم الدين هنا بدور الأم⁽⁴⁾.

ويبدو كلام هذا الباحث، فيه بعض اللبس لأنه يتكلم عن الدين بوصفه عذارى داخل الشرنقة، مع العلم أن العذراء هي نفسها الشرنقة، وأرى أن ما يقصده توينبي من هذه المماثلة، أن الدين هو الظرف أو الإطار أو الغلاف الذي يحمل الحضارة، وهو الذي

(1). المصدر نفسه، ج 1، ص 131.

(2). حسين مؤنس: الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د ط، 1978)، ص 195.

(3). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 1، ص 127.

(4). أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، (الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، د ط، 1975)، ص 277.

يتحول الى حضارة في الوقت المناسب، كما تحولت الشرنقة إلى فراشة. وفي انتظار هذا الموعد تعمل العقيدة الدينية على استغلال الطاقات التي باتت الحضارة الآفلة عاجزة عن تحريرها أو الانتفاع بها، لتخلق مسالك جديدة تجد فيها تلك الطاقات منفذاً، مع التركيز على جذب المحبطين، والمنبوذين وكل من أخفق في العثور على متسع لمواهبه، سواء داخل المجتمع أو خارجه نحو نظام أخذ في الصعود، وتنظيم سرعتهم وفقاً لسرعته، ليساهم الجميع في التأسيس لمجتمع صاعد على حساب مجتمع في طريقه إلى الزوال⁽¹⁾. وبالطبع فإن البون شاسعاً بين ظهور فراشة وظهور حضارة، ولشرح هذه العملية لم يجد أفضل من الحضارة الإسلامية، لأن العامل الديني في ظهورها لا تحطئه عين. فالعقيدة الدينية الإسلامية بنظره استمدت حيويتها من حضارة قديمة وهي فيما يعتقد الحضارة الرومانية الآفلة، وذلك بالاستلاء على عناصرها واحتضانها لفترة زمنية، وعندما حان موعد ظهورها شرعت في تجسيدها على أرض الواقع في صورة مظاهر دنيوية متنوعة اقتصادية وسياسية وعلمية وفنية⁽²⁾. وكان يرى أن الحضارة الغربية المعاصرة خرجت منذ 250 سنة من شرنقة الكنيسة الكاثوليكية الغربية التي ربطت بين الحضارة الهلينية كأب، وبين الحضارة الغربية كإبن. وقدم مثال عن شرنقة أخرى وهي شرنقة الديانة اليهودية التي تحفظ في نسيجها أحد الحضارات المتحجرة الملتحفة بلحاء ديني، تتحين الظروف المناسبة لتخرج كحضارة جديدة، إنها حضارة مع وقف التنفيذ إلى حين، أي أنه يتوقع ظهور حضارة يهودية في المستقبل، كل هذا يؤكد قيمة الدين بوصفه قناة لانتقال الحضارة، وفي هذا الجدول نجد الدين كان واسطة بين حضارات مختلفة⁽³⁾.

الحضارة الأصلية (الأب)	الواسطة الدينية	الحضارة المنتسبة (الإبن)
الحضارة الهلينية	العقيدة المسيحية	الحضارتان المسيحية الغربية والشرقية
الحضارة السندية	العقيدة الهندوكية	الحضارة الهندية
الحضارة الصينية	بوذية الماهايانا	حضارة الشرق الأقصى
الحضارة السوربانية / السورية	العقيدة الإسلامية	الحضارة الإيرانية العربية

ومساهمة الدين في استيلاء الحضارة، سيكون مقابله مساهمة الحضارة في المحافظة على هذه العقيدة ونشرها على أوسع نطاق فقال: إذا كان بحثنا قد قادنا إلى اعتبار الديانة يفعة تعيد من خلالها حضارة قديمة شخصيتها من جديد، يتعين علينا الآن أن نفكر في الحضارة الوليدة باعتبارها افتتاحية أو مقدمة لظهور عقيدة دينية⁽⁴⁾. بمعنى تصبح الحضارة يفعة تعمل على ظهور الديانات. ولهذا كان يرى أن انهيار الحضارة في مكان ما لا يمثل كارثة كما يعتقد البعض⁽⁵⁾. لكن إذا كان الدين شرطاً في ظهور الحضارة، فإن

(1). ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج 3، ص 155.

(2). المصدر نفسه، ج 3، ص 156.

(3). المصدر نفسه، ج 3، ص 153.

(4). المصدر السابق، ج 3، ص 197.

(5). المصدر نفسه، ج 3، ص 201.

ظهور الحضارات الأصلية يطرح مشكلا، لأنها غير مسبقة بأديان معروفة، ولهذا عمل على التخلص من هذه المعضلة بافتراض وجود أديان بدائية.

6 . خاتمة:

ما يمكن قوله في نهاية هذا المقال أن توينبي وإن كان قد تجاهل دور الدين في ظهور الحضارة لاسيما في أعماله الأولى، فإن مؤلفاته الأخيرة كانت مركزة على هذا العامل، فأصبح ينظر إليه باعتباره أهم عوامل التقدم، وأنه متى فقد الناس إيمانهم، فإن حضارتهم تكون معرضة للتفكك الاجتماعي الداخلي، والهجوم العسكري الخارجي، ويعتقد أن الحضارة يقررها الدين الذي تتأسس عليه، باعتباره مصدر حيويتها واستمرارها⁽¹⁾. وهذا لا يعني أنه يقصد دينا معينا، فهولا يميز بين الديانات سواء كانت أرضية أو سماوية، بل كان لا يعارض الالحاد، وهو نفسه أعلن في أحد حواراته أنه غير مؤمن بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة، ويرى أن قيمة الأديان لا تقاس بمدى صحة ما يحمله من عقائد، وإنما بما تحققه من نتائج وبعده معتقيها.

لكنه أحيانا يظهر كأبي مسيحي مؤمن مخلص لعقيدته، فذكر أن المسيحية هي الحارس الأمين للحضارة الإنسانية في كل مكان منذ ظهورها في فلسطين، وهي التي وقفت وراء الحضارة الإسلامية، ثم كانت السند الحقيقي للحضارة في الغرب في كل أطوارها. ويبدو أنه كان منساقا كغيره للميول التي تقف وراء الاعتزاز بالانتماء، وما يتصل به من لغة ودين وقومية، وهي ظاهرة معروفة وقد أشار إليها من قبل هيرودوت فقال: "لو سنحت الفرصة لشخص أيا كان، أن يفاضل بين معتقدات شعوب الأرض قاطبة لاختار أحسنها، فلا بد أنه بعد دراسة وافية لمزاياها النسبية، سيختار بلده، فالناس جميعا بلا استثناء يعتقدون أن عادات بلادهم، ومعتقداتهم الدينية التي نشئوا عليها تفضل سواها"⁽²⁾. وأكد هذا توينبي بقوله: أن الأوروبي بالغ ما بلغ مستواه العقلي والتقني، لن يستطيع أن يخلع عنه ميراث آدم من الخطيئة الأصلية، وأن القيم الروحية تتضاءل إلى جانبها كل القيم⁽³⁾، وأحسب أن هذا الحكم ينسحب عليه أيضا.

أما المماثلة التي أقامها بين الدين والشرقة وهو بصدد معالجة مسألة توالد الحضارات مشبها هذه العملية، بالتحول الذي تعرفه بعض الحشرات، فقد نتجت عن منهج غير سليم لسبين، أولهما أن المجتمع وعلى الرغم من كونه يتألف من أفراد، فإن القوانين التي تحكمه أكبر بكثير من الغرائز التي تحكم عالم الحشرات، وثانيهما أن هذه المنهجية قادته للوقوع في بعض الأخطاء منها دمج بعض الحضارات المنفصلة عن بعضها البعض، وأحيانا كان تدفعه لتفكيك الحضارة الواحدة إلى قسمين، ومن ذلك أنه قام بدمج الحضارة الرومانية في الحضارة اليونانية، صارفا نظره عن الإنجازات الحضارية التي قام بها الرومان، وقسم الحضارة الإسلامية إلى حضارة عربية وحضارة إيرانية. ويمكن القول أن هذا الدمج أو التفكيك لا مبرر له إلا محاولة التشبث بنسق فكري غير متماسك، محوره فكرة الأبوة والبنوة القائمة بين المجتمعات، وهو تصور من الصعب قبوله خارج إطار الكائنات الحية. ثم إذا كان الدين هو الذي يحفظ البذرة الحضارة كما قال، فمن يحفظ الدين؟ بالنسبة لتوينبي المجتمع هو من يتكفل بحفظه، وهنا نتساءل إذا كان المجتمع قادرا على

(1). ارنولد توينبي: التحديات الكبرى، ص 367.

(2). هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص 235.

(3). احمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 265.

حفظ الدين، فما يمنعه من حفظ الحضارة لاسيما وأن الدين أحد عناصرها؟ هذه الأسئلة وغيرها تمثل دعوة لإعادة النظر في فلسفة الحضارة عند هذا المفكر.

المراجع:

1. توينبي ارنولد، دايساكو اكيدا: التحديات الكبرى، الحياة والدين والدولة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، (دمشق وزارة الثقافة، ط 1، 1999).
2. توينبي ارنولد: الحرب والمدنية، ترجمة احمد محمود سليمان، (القاهرة، دار النهضة، د ط، 1964).
3. توينبي ارنولد: الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة لمعي المطيعي، (القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، 1966).
4. توينبي ارنولد: تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، ج 1، (بيروت، الاهلية للنشر والتوزيع، د ط، 2004).
5. توينبي ارنولد: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد الشبل، ج 1، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، د ط، 2011).
6. احمد علي: عبد اللطيف محاضرات في تاريخ الشرق الادنى القديم، (بيروت، كتب كريدية اخوان، د ط، 1971).
7. الاعرجي علاء الدين: أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل (لندن منشورات اي كتب، ط 5، 2015).
8. آلبان. ج ويد جيرى: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1996).
9. التيمومي الهادي (اشراف): نظريات المعرفة التاريخية، وفلسفات التاريخ في العالم الغربي، في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، (تونس، بيت الحكمة، ط 1، 2008).
10. الجابري محمد عابد: تكوين العقل العربي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، دار الطليعة، ط 10، 2009).
11. دي بويس: مستقبل الحضارة، ترجمة لمعي المطيعي، (القاهرة، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، د ط، 1961).
12. ديورانت ول: دروس التاريخ، ترجمة علي شلش، (القاهرة، دار الجيل، د ط، 1999).
13. روبرت لوي: تاريخ الاثنولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية، ترجمة نظير جاهل، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 2007).
14. روسو جان جاك: العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، 2012).
15. زريق قسطنطين: في معركة الحضارة، (بيروت، دار العلم للملايين، ط 4، 1971).
16. سيمون بيير هنري: الفكر والتاريخ، الفكر والتاريخ، ترجمة عادل العوا، (دمشق، المطبعة الهاشمية، د ط، 1963).
17. شلي أمين: نظرات في توينبي، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2000، ص 58.
18. الشيخ رأفت: فلسفة التاريخ، (القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1988).
19. صبحي احمد محمود: في فلسفة التاريخ، (الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، د ط، 1975).

20. صليبا جميل: المعجم الفلسفي، (لبنان ، دار الكتاب اللبناني، د ط ، 1982)، ج 1.
21. العزواي عبد الرحمن حسين: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، (عمان، دار الخليج، ط 1، 2011).
22. كولنجوود روبن جورج: فكرة التاريخ، ت، محمد بكير خليل، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، دط، 1961).
23. لالاند اندري: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل احمد خليل، (بيروت، باريس، منشورات عويدات، ط2، 2001).
24. لوي روبرت: تاريخ الاثنولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية، ترجمة نظير جاهل، (بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 2007).
25. لينتون رالف: شجرة الحضارة، قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ، حتى بداية العصر الحديث، ترجمة احمد فخري، ج 1، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، د ط ، 2010).
26. المطيعي لمعي: ارنولد توينبي المؤرخ الفيلسوف، (القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، د ط، د ت)
27. معلوف أمين: اختلال العالم، حضاراتنا المتهافنة، ترجمة ميشال كرم، (بيروت، دار الفارابي، ط 1، 2009).
28. المنصوري المبروك: مكانة الدين في النهضة اليابانية و العربية، (تونس، الدار المتوسطة للنشر، ط 1، 2012).
29. موران ادغار: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، (أبو ظبي، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط 1، 2009).
30. مونتاغو اشلي: البدائية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د ط، ماي 1982).
31. مونتاغواشلي: البدائية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د ط، 1982).
32. مؤنس حسين: الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، (الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، د ط ، 1978).
33. هيروودوت: تاريخ هيروودوت، ترجمة عبد الاله الملاح، (ابوظبي، شركة ابوظبي للطباعة والنشر، د ط، 2001).
34. وولي هاوس ول: اضواء على العصر الحجري، ترجمة يسري عبد الرازق الجوهري، (القاهرة، دار المعارف، د ط، د ت).
- 35- Arnold Toynbee: civilisation on trial, (new York ,oxford universitypress, 1948)
- 36 - GeylPieter ,toynbee's system of civilisation . toynbee and history ,criticalessays and reviewsedited by M . f .ashleymontague , (boston, porter sargentpublisher, 1956).
- 37 - Robert Derathé : Les deux conceptions de l'histoire ches Arnold J . Toynbee , (Revue Francaise de science politique , 5^eannee , no 1, 1955)